

نظرية المعرفة

وعلاقتها بالفلسفة والتصوف

بقلم محرر المجلة

— ٢ —

نشأة المعرفة

حدثك في الجزء الأول عن لفظ المعرفة لغة واصطلاحاً ، ووعدتك بالتحدث عن تدرج النظرية ونشأتها فنقول :

عند ما برز الإنسان إلى هذا الوجود ، ورأى نفسه محاطاً بمختلف الكائنات . تولته الدهشة مما يرى وأخذ العجب مما يسمع ، فاختلط عليه الأمر ، ولم يستطع تمييز الحابل من النابل ، أو التفريق بين المحسوس والملموس . وبما أنه بطبعه يحب للاستطلاع وبغريزته ميال إلى الفهم . فقد حاول منذ بداية أمره أن يستطلع أسرار الكون ، ويتعرف حقائقه ، ويفهم خوافيه ، على أنه أخذته الدهشة فسأل نفسه من أين أتى ، وماذا يرى ، وإلى أين ينتهى ؟

تلك أسئلة ثلاثة ما تزال لغزاً معقداً ، وما يزال الناس يتلمسون السبل لحلها ، ويتخيرون الطرق للوصول إليها ، وما فتئت بالرغم من دقة لغة الكون إلى الآن ، ومذهب الوجود حتى الساعة ، وأقصد من ذلك أنها ما تزال لغة كل إنسان ، ومذهب كل من لم تثقفه الديانات

فالإنسان في التحقيق — يحس من نفسه الجهل بما يحيط به لأول وهلة . فيأخذ في تصور ظواهر الأشياء ليكون له فيها رأياً . ثم يجتهد في تعرف عللها ، وتفهم علاقاتها بظواهرها ، وهذا كله ما كان يعمل به الإنسان منذ شعر بأنه موجود . على أنه شك فنظر . وفكر فاعتقد . ثم حقق فعرف الحق . فأضحى عارفاً بما رأى .

ونقول إنه حقق بعد أن اعتقد لأن كل ما يعتقده الإنسان لا يعد حقا إلا بعد التحقيق لما قد يكون بنى عليه البحث من تأمل عقيم أو معرفة ناقصة
تجرنا هذه المسألة إلى مسألة أخرى هي : أى الأشياء الخمسة كانت أول ما عرفه
الإنسان فى تاريخ الفكر البشرى ؟ أهو العلم ؟ أم الدين ؟ أم الفلسفة ؟ أم
الفن ؟ أم الأدب ؟

يختلف الناس فى هذا اختلافا كبيرا ، على أنه — فى الحق — خلاف لا يقدم
قليلًا ، ولا يؤخر كثيرا . ومهما يكن من خلاف ، فأنا نرى أن الفلسفة هى
أولى الأشياء الخمسة ، ودليلنا على هذا أن أول ما صادف الإنسان هو الدهشة ،
والدهشة كما يقول أرسطوطاليس : أول باعث على الفلسفة ، وبديل ثانى هى تلك
الأسئلة التى سأل الإنسان بها نفسه ، وهل تقوم الفلسفة إلا على تلك الأسئلة
نفسها ؟ وبعبارة أخرى هل يوجد فى الفلسفة ما هو أشد تعقيدا من تلك الأسئلة
نفسها ؟ وهاك دليلا ثالثا فى منتهى البساطة لا يحتاج إلى عمل فكر أو إنعام نظر .
ذلك هو ما تراه من الطفل يجبهك بالسؤال المعقد تلو السؤال الملعز ، فلا تستطيع
له إجابة ، ولا تقدر على إقناعه إلا هربا ، وتخال نفسك عاجزا بأزاء إنسان
متفلسف ، درس من الفلسفة أعوصها ومن الحياة بواطنها . أليس كل ما تقدم كافيا
ليثبت لنا أن أول عهد للإنسان بالأشياء هو الفلسفة ؟ أو ليست الفلسفة صورة
من صرر المعرفة التى يقوم عليها بنيانها ؟

وإذا كان الإنسان كما قلنا شك فنظر فهل يكون النظر فيما يشك فيه

إلا فلسفة ؟

نتنقل إلى مسألة أخرى تلك مسألة العلم ، ونحن نرى أن العلم يتبع الفلسفة
فى الترتيب ، فهو إذن الصورة الثانية من صور المعرفة ، ودليلنا على هذا هو أن
الإنسان فى بدء عصره حينما رأى جذع الشجرة يحترق إذا ما اندلعت فيه النار علم
أن قوام الشجر مادة قابلة للاحتراق ، ومن ثم علم أن جسمه — كمادة تتكون
من جماد ، ونبات ، وحيوان — قابل للاحتراق أيضا

وعند ما علم أن العصا يغرسها في الأرض فتصل إلى طبقة أرضية تخالف طبقة السطح ، علم أن هناك طبقة أخرى أو عالما آخر يخالف عالم الأرض ذلك هو عالم الماء ، وهل هذا إلا علم طبقات الأرض أو (جيولوجيا) باليونانية ؟ كذلك عند ما أخذ يسير إلى العين أو البئر يستسقى منها ، علم أن هناك مناطق أخرى غير المنطقة التي يعيش فيها أو الغار الذي يسكنه ، وعند ما رأى النجم يظهر ويختفي والسماء تمطر وتبرق ، علم أن هناك عالما من الكواكب ، وأجراما من الأفلاك تتطلب البحث والنظر ، وهل هذا إلا العلم نفسه ؟

ننتقل إلى ما نرى ترتيبه ثالثا ، وذلك في نظرنا هو الدين ، والدين كما قدمت (في الجزء الأول) صورة من صور المعرفة التي لا تتحقق إلا به ، وتلك الصورة ما كان ترتيبها إلا في المرتبة الثالثة ، وذلك لأنها نتيجة الاعتقاد ، وما كان الاعتقاد إلا نتيجة البحث . على أن الدين لم يعرف كصورة من الصور البارزة إلا في عصور الأنبياء المرسلين ، وإذا كان قد عرف قبل هذا فأن تاريخه على ما نظن يرجع إلى تاريخ (طاو) وهو أول من وضع شريعة لأتباعه الطاويين في الصين ، وذلك قبل الميلاد بأكثر من ثلاثين قرنا . وكذلك في عهود الكتب الهندية والفارسية المقدسة كالفيدا والأفستا وغيرهما . ثم جاء البابليون ، والمصريون القدماء بعباداتهم التي تمثلوها في الأصنام والتماثيل وغير ذلك من صور ، فكان كل هذا نتيجة تفلسف وتعلم . ونود أن نلفت القراء الى معنى الصورة البارزة الذي نقصده . وإلا فأن آدم عليه السلام وهو أول نبي خلقه الله ليعرف به ، ومعرفة الله تعالى لا تتم بغير الدين .

ننتقل الى النقطة الرابعة فنقول : استتبع الدين لتأييده في النفوس واستقراره في القلوب أن يتلبس صورا وأشكالا تخيلها الكهنة في إقامة الهياكل والمعابد والأصنام ، فكانت تلك المظاهر بذور الفن وجرثومته الأولى ، وإذن فقد كان الفن بعد الدين مباشرة

على أن الإنسان حاول أن يظهر ماتكنه نفسه من شعور نحو هذا الفن المعهود ، و يسر بما يتمثله في ذات نفسه إلى ذلك الآله الممثل في الصنم . فكان الشعر ، وكان النثر ، وكانت الأساطير ، وكانت إلياذة هوميروس ، وأودسaea ، وهما أثران يثبتان لنا ما اعترك في النفوس من تخیلات في آلهة الخير والشر والقوة والجمال . فأنت تسمع اسم أبولون ، وأفروديت ، والزهرة وغير ذلك من أسماء ومسميات

نستخلص من كل ما تقدم أن التاريخ الفكرى للمعرفة ابتداءً بالفلسفة ، فالعلم ، فالدين ، ثم الفن ، فالأدب . ذلك هو تاريخ مقومات النظرية في نظرنا نحن ، وندع رأى الغير جانباً حتى تقوم لنا الأدلة على صحته .
بقى الكلام على التصوف . ونرى أنه باعتبار « المعرفة العليا » يتطلب منا بحثاً بل بحوثاً خاصة نطرقها في المستقبل إن شاء الله

وبقى أن نعرف كيف نشأ الخلاف في صور المعرفة ، وفي طبيعتها ، وفي حدودها ، وفي طرق تحصيلها ، ونجيب على هذا فنقول . إن أول من سبب الخلاف في تلك النظرية إنما هم فلاسفة اليونان ، ويرجع هذا إلى أنهم كانوا ينظرون إلى الأمور بنظر يفوق نظر السذج ، ويتدبرون المسائل بفكر يفوق أفكار العامة من الناس . فكان ثمة اختلاف ، وكان تباين وتضارب ، ومن ثم قام الخلاف على ما يأتى . إذا كان ما يراه إنسان بعقله حقاً فلماذا يراه آخر باطلاً ؟ وإذا كان الإنسان يرى أن الباعث له على طلب المعرفة إنما هو سد حاجيات النفس ، وإشباع شهوته الجسدية . فلماذا يتطلبها آخر لأشباع غريزة حب الاستطلاع ، وإرواء ظمأ نفسه المتعطشة إلى العلم ؟

وإذا كان العقل الذى يرى أن العديدين يكونان اثنين ، وقد تلائم مع العقول المختلفة ، وتواضع مع الأفهام المتباينة على ذلك . فكيف إذن يكون الخلاف في نظر إلى صور المعرفة ؟

ذلك ما نرجى القول فيه إلى فرصة أخرى والله المستعان . المحرر